اطار السياق الداخلي لقصة الصهيونية، لمتابعة الظروف الدولية والعربية التي عاصرت مراحل البناء الصهيوني · ولذلك فانه عندما لم يجد بدا من كسر ذلك القيد المتعسف احيانا ، كانت متابعته للاوضاع التاريخية المحيطةبنشأة وتطور الصهيونية ، متابعة مجتزأة وغير وافية ، بالرغم من ان تلك الاوضاع هي في المحصلة النهائية جزء لا يتجزأ من عوامل نشأة وتطور ونجاح المشروع الصهيوني ·

ومع ذلك فان كتاب « **قصة الصهيونية داخليا**» يقدم تلك الحركة تقديما تاريخيا موثقا يفي بالهدف الذي وضعه الكاتب نصب عينيه · فهو الى جانب المقدمة ، نظم الجزء الاول من مؤلفه في خمسة فصول هي : طلائع الصهيونية ، اي المفكرون الاوائل (١٨٦٢ ـ ١٨٨٤) ، هواة صهيون ، اي المنفذون الاوائل (١٨٨٢ ـ ١٩٠٤) ، هرتسل والمنظمة الصهيونية العالمية ، اي مشروع الدولة اليهودية واجهزتها (١٨٩٧ ـ ١٩٠٤) ، الهجرة الثانية ، اي اسس النظام الصهيوني (١٩٠٤ ـ ١٩١٤) ، الحرب العالمية الاولى ووعد بلفور ، اي تحالف الاستعمار والصهيونية (١٩١٥ ـ١٩١٧)·

وهو في ذلك كله يتجنب سياسة لوي عنق الحقائق بهدف توظيفها لوجهة نظر خاصة او احكام قبلية متحيزة ، ويتمسك الى ابعد الحدود بمنهجية البحث العلمي، بدون اكاديمية ضيقة الغاية والقصد ، وبغير « مدرسية » تسطح المعرفة والمفاهيم فحينما يتتبع المسألة اليهودية منذ طرد اليهود من اسبانيا سنة ١٤٩٢ ، يلتقط بعناية المفاصل الاساسية لقصة العذاب اليهودي في اوروبا والذي ادى ، الى جانب جملة من العوامل الاخرى ، الى نشأة الصهيونية في اواسط القرن الماضي خاصة بعد المذابح التي تعرض لها اليهود في روسيا القيصرية عام ١٨٨١، ويقرر بشجاعة ، في ختام استعراضه لعوامل نشأة الصهيونية ، ان الدين اليهودي هو احد العناصر المكونة للمفهوم الصهيوني بتعريفاته السياسية الحديثة · ويضيف بدون مجازفة علمية ان المعتقدات التوراتية وما تبعها من اجتهادات وتفسيرات « هي التي تقف وراء العديد من اسس الصهيونية ونظرياتها ، اذا قيست بالاثر الذي تركته على تفكير اباء الصهيونية وزعمائها ، كما يتضح من كتاباتهم واعمالهم · وتقف هذه المعتقدات ايضا وراء العديد من الحقوق والمتطلبات الاستثنائية ، التي تدعيها الصهيونية ، في مواقفها من باقي الشعوب والدول » · ويخلص الى ان القيمة التاريخية لتلك الثيولوجيا هي في كونها « عنصرا من عناصر الوعي الاجتماعي واحيانا القومي ، لدى اليهود » (ص٥٨)·

وبهذا يكون جريس قد ميز نفسه بوضوح عن اولئك الذين يدعون بان الصهيونية نشأت مع الديانة اليهودية،وان الاخيرة لعبت في كل العصور دور الحاضنة الفكرية لبذور تلك الحركة السياسية المعاصرة · وفي الوقت نفسه ، ميز جريس نفسه ايضا عن اولئك الذين يزعمون بان الصهيونية كانت وليدة فكر وتخطيط رجال الاستخبارات البريطانية، اي انها نشأت وتطورت بقرار من حكومة بريطانيا بمعزل عن التطورات الفكرية الذاتية التي شهدتها التجمعات اليهودية الاوروبية ·ومع انه يعود لاحقا الى التأكيد على تلك العلاقة ، الا انه قد استخلص مبكرا ان اليهودية هي فقط احدى مركبات الصهيونية وان الاخيرةهي حركة سياسية وليدة الظروف الاوروبية